# الاعتصام بالكتاب والسنة

وأثره في
# وحدة الأمة

بقلم
الدكتور / عاصم عبد الله القريوتي
الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة

الناشر
مكتبة التوعية الإسلامية
لإحياء التراث الإسلامي
ناصية شارع محمد عبد الهادي - الجوهرة - الطالبية
ت : ٨٦٨٦٠٥

كافة حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الناشر

مكتبة التوعية الإسلامية
لإحياء التراث الإسلامي
ناصية شارع محمد عبد الهادي - الجوهرة - الطالبية
ت : ٨٦٨٦٠٥

**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله إلى العالمين وعلى آله وصَحبه أجمعين .

وبعد :

فلقد كنت ألقيتُ محاضرة بقاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان :

« الاعتصام بالكتاب والسنة وأثره في وحدة الأمة » وقد رغب بعض الفضلاء الحضور في طبع المحاضرة لتعمَّ الفائدة إن شاء الله . وها أنا أُقدّمها إليك - أخي القارئ - عسى أن تجد فيها ما يأخذ بيديك إلى المزيد من التمسك بالكتاب الكريم وبالسنة النبوية ، وإلى الحذر من الابتداع القديم والحديث ، سواءً في باب الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، أو في باب العصبية المذهبية أو العصبية الحديثة للجماعات والأحزاب التي أصبح الولاء والبراء عند الناس – إلا مَنْ رحم الله – في ظلالها غافلين عن قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ، وقوله (سبحانه وتعالى) في وصفِ عباده المؤمنين :﴿ أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين ﴾ ، وقوله ﷺ : « المسلم أخو المسلم » ، وقوله ﷺ : « حقُّ المسلم على المسلم ستٌّ . . . » إلى غير ذلك من النصوص الشرعية التى علّق الإسلامُ فيها الحقوقَ على الإسلام لاغير ، والتي يتحقق في معانيها وبما ورد في ذلك من آثارٍ عن السلف تجنّبُ الخلافِ ما أمكن ، إذ كلّما كنا إلى الأدلة أقرب كنا عن الخلاف أبعد وإن لم يعدم من الأرض .

وأخيراً أسأل الله سبحانه أن يُوحِّد الصفوف في ظلال توحيد الله (سبحانه وتعالى) وتجريد الاتباع المطلق للرسول ﷺ إذهما الأساس للدعوة الحقّ حيث :

« لا توحيـــــد إلا بالتوحيـــــد »

***والحمد لله أولاً وآخراً***
***وكتب***
***أبو صهيب القريوتي***

بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضلّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ حقَّ تُقَاتِه ولاتموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾

﴿ يا أيها النّاس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللهَ الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم ومن يُطعِ اللهَ ورسولهَ فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾

أما بعد :

فإنَّ أصدق الحديث كتابُ الله ، وأحسنَ الهدْي هديُ محمد ﷺ ، وشرُّ الامورُ محدثاتُها وكلُّ محدثةٍ بدعةٌ ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ ، وكلُّ ضلالة في النار .

أما بعد :

فيقولُ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حُفْرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ [ سورة آل عمران : ١٠٢ و ١٠٣ ] .

إخوَةَ الإسلامِ : يأمر الله (عز وجل) عبادَه المؤمنين أن يتقوه حقَّ التقوى ، وذلك بأن يُطاع فلا يُعصى ، ويُشكرَ فلا يُكفر ، ويُذكر فلاَ ينُسى (١) ، والتقوى وصية الله للأولين والآخرين ، ووصيةُ النبى (صلى الله عليه وسلم ) لأمته قال (تبارك وتعالى) : ﴿ ولقد وَصَّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أنِ اتقوا الله ﴾ [سورة النساء : ١٣١] .

---

(١) روي هذا مرفوعاً وموقوفاً وإسنادُ الموقوف صحيح رواه الحاكم وابن أبي حاتم .

والمراد من قوله تعالى : ﴿ إلا وأنتم مسلمون ﴾ أي مُذْعِنون له بالطاعة مُخلصون له الألوهيةوالعبادة [1] .

ثم يأمر الله (سبحانه) في الآية الثانية المؤمنين بالاعتصام بحبل الله جميعاً وينهاهم عن التفرق .

والاعتصامُ : إفْتِعَالٌ من العصمة ، وهو التمسكُ بما يعصمك ويمنعك من المحذور والخوف ، فالعصمةُ : الحميةُ ، والاعتصامُ : الاحتماءُ ، ومنه سُمِّيت القلاعُ :العواصمَ لمنعها وحمايتها . [2]

وحبل الله هو القرآنُ الكريمُ والسنةُ النبويةُ . ودليل ذلك ما أخرجه ابنُ جرير وابنُ أبي شيبة بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري أنَّ رسول الله (ﷺ) قــال : « كتابُ الله هو حبلُ الله الممدودُ من السماء إلى الأرض » ، وما أخرجه الطبري عن ابن مسعود موقوفاً بإسناد صحيح – وله حكم الرفع – « إن الصراطَ مُحْتَضَرٌ تحضُره الشياطيـنُ ، ينادون ياعبادَ الله ، هَلُمَّ هذا الطريق ، ليصدوا عن سبيل الله ، فاعتصموا بحبل الله فإن حبلَ الله هو كتابُ الله » .

والسنةُ النبويةُ داخلة ضمن القرآن الكريم لأدلة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسولُ فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾ [سورة الحشر : ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى . إنْ هو إلا وَحيٌ يوحى ﴾ [سورة النجم : ٣ ، ٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ واحذروا فإنْ تولَّيتُم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ [المائدة : ٩٢] وقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتُبَيِّن للناسِ ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ .[ سورة النحل : ٤٤] وقوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزَّلنا الذكرَ وإنا له لحافظون ﴾ [سورة الحِجْر : ٩] فصحَّ بهذا وبغيره أنَّ كلَّ بيان من رسول الله ﷺ للذكر إنما هو أمْر من الله ، وبهذا فالسنةُ النبويةُ داخلة ضمنَ تَكَفُّلِ الله تعالى للذكر الذي يشمل القرآنَ والسنة معاً .

ولقد شُبِّه تمُّسكُ المسلمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم وماهم عليه بعد التمسك والاجتماع والتكاتف بحالة استمساك المتدلِّي من مكان عالٍ بحبل متين تأمنُ معه من السقوط . والحبلُ هو السببُ الذي يُوصِل إلى البغية والحاجة ؛ ولذلك سُمِّي الأمانُ حبلاً لأنه سبب يوصَل به إلى زوال الخوف ، والنجاة من الجزع والذُّعر . ومنه قوله تعالى : ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ [ سورة آل عمران : ١١٢ ] .

---

(١) جامع البيان للطبري.

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص ٢٥١ ) .

فالاعتصامُ بحبل الله وسنَّة نبيه يُوجب الهدايةَ لصاحبه ، ويحميه من البدعة وآفات العمل ، وعليه مدارُ السعادة الدنيوية والأخروية ، إذ لانجاة إلا لمن تمسَّك بهما [1] .

ثم ينهى سبحانه عن الفرقة لما في ذلك من زوال للوحدة التي هي معقدُ العزَّة والمَنَعَة كما قال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ [ سورة الأنفال : ٤٦ ] أي قوتكم ووحدتكم .

ثم يُشير سبحانه إلى ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من الأخوة الإيمانية والتآليف بين القلوب ، التآليف الذي قال اللهُ بشأنه : ﴿ لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألَّفتَ بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيزٌ حكيم ﴾ [سورة الأنفال : ٦٣] إذ قاسَمَ الأنصارُ المهاجرين أموالَهم وديارَهم ، مع ماهم فيه من الخَصَاصة والحاجة الشديدة بعد ما كان بينهم في الجاهلية من البغضاء والعداوة وسفك الدماء والحرب الضروس . والآيةُ السابقةُ في الأمر بالاعتصام والنهي عن الفرقة في معنى قوله تعالى : ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعـــام : ١٥٣] قال الحافظ ابن كثير (رحمه الله) : « أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله » [2] .

وروى أحمد والحاكم وغيرهما بإسناد صحيح عن عبدالله بن مسعود قال : خَطَّ لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال : « هـذا سبيلُ الله » ، ثم خطَّ خطـوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قـال : « هذه سُبُل ، على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه ثم قرأ : ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾ » . وقد جاء تفسير الصراط بأنه الإسلام كما روي أحمد والترمذي والحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، واللفظُ للحاكم فعن النَّواس بن سمعان الأنصاري – رضي الله عنه – صاحبِ النبيِّ ﷺ عن رسول الله ﷺ قـال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى كَنَفَي الصراط سوران ، فيهما أبوابٌ مفتَّحة ، وعلى الأبواب ستور مُرخاة ، وعلى الصراط داعٍ يدعو ، يقول : يا أيها الناس اسلكوا الصراطَ جميعاً ولاتعوجّوا ، وداعٍ يدعو على الصراط فإذا أراد أحدكم فَتْحَ شيئٍ من تلك الأبواب قال : ويلك لاتفتحْهُ ؛ فإنك إنْ تفتحْهُ تلِجْهُ ، فالصراطُ : الإسلامُ ، والستورُ : حدودُ الله ، والأبوابُ المفتَّحة :

(١) انظر المصدر السابق .
(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ١٩٠) .

محارمُ الله، والداعي الذي على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعي من فوق : واعظُ الله يذكّر في قلب كل مسلم » والنهيُ عن التفرق والاختلاف في الدين وصيةُ (الله سبحانه) إلى أُولي العزم من الرسل كما قال (سبحانه وتعالى) : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كَبُر على المشركين ماتدعوهم إليه ، اللهُ يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من يُنيب ﴾ [الشورى : ١٣] .

وقد حذَّر الله (عز وجلس) من الفرقة في الدين في قوله (سبحانه) : ﴿ إنَّ الذين فرَّقوا دينَهم وكانوا شيعاً لست منهم في شئ إنما أمرهم إلى الله ثم يُنبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩ ] وهذه الآية الكريمة ، وإن كانت تتحدث عن اختلاف اليهود والنصارى قبل البعثة ، لكنها عامة في كل مَنْ فارقَ دينَ الله وكان مخالفاً له بجعله الدينَ مِلَلاً ونِحَلاً ، فبهذا العمل يكون قد لَصِقَتْه البراءةُ من الله ورسوله (١) . ويؤيد هذا العمومَ الآيةُ السابقةُ في كون النهي عن الفرقة مما أوصى به اللهُ أولي العزم ويؤكده أيضاً قولُ البارى عز وجلَ : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيناتُ وأولئك لهم عذابٌ عظيم ﴾ [آل عمران :١٠٥] فهذا نَهْيٌ من الله لهذه الأمة أن يكونوا من الأمم الماضية وما كانوا عليه من الاختلاف والفرقة بعد قيام الحجة عليهم ، والذين استحقوا بذلك العذابَ العظيم .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرتَ الله التى فطر الناسَ عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدينُ القيِّم . ولكن أكثر الناس لايعلمون . مُنيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرَّقوا دينَهم وكانوا شيعاً كلُّ حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الروم : ٣٠ - ٣٢ ] .

فهذا نهيٌ من الله عن التشبه بالمشركين الذين من صفاتهم الفرقةُ في الدين والتشتتُ شيعاً وأحزاباً .

وفي السنَّة النبوية نصوصٌ عظيمة تأمر بالتمسك بالكتاب والسنة وتنهى عن الخلاف والفرقة ، وهذه طائفةٌ مباركة من هذه الأحاديث .

روى مسلم في صحيحه عن أبى هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ :« إن الله يَرْضَى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن

(١) انظر المصدر السابق (٢ / ١٩٦) .

تعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرّقوا ، ويكرهُ لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » وروى البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنَّ رسول الله (ﷺ) قال : « كل أمتي يدخلون الجنّة إلا مَنْ أبى . قالوا : يا رسول الله ومن يـأبى ؟ ! قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » ، وأخرج الشيخان عن أبي موسى عن النبى ﷺ قال :« إنما مَثَلى ومَثَلُ ما بعثنى الله به كمثل رجلٍ أتى قوماً ، فقال : ياقوم إني رأيتُ الجيشَ بعينَيَّ ، وإني أنا النذيرُ العريانُ ، فالنجاءَ النجاء ، فأطاعه طائفةٌ من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مَهلهم فنجَوْا وكذَّبت طائفةٌ منهم فأصبحوا مكانَهم ، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم ، وأجتاحهم ، فذلك مثلُ من أطاعني فاتَّبعَ ماجئتُ به ، ومثل مَنْ عصاني وكذَّبَ بما جئتُ به من الحق » .

* وروى الحاكم في المستدرك (١) بسند حسن ، عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال :« إني قد تركتُ فيكم ماإنْ تمسكتم به فلن تضلوا أبداً : كتابَ الله وسنةَ نبيه » .

* وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم بسند صحيح عن العرباض بن سارية قال: « صلى بنا رسولُ الله ﷺ ذات يوم ، ثم أقبلَ علينا بوجهه ، فوعظنا موعظةً بليغةً ، ذرفت منها العيونُ ، ووَجِلت منها القلوب ، فقال رجلٌ : يا رسول الله ، كأن هذه موعظةُ مُودِّع ، فماذا تعهدُ إلينا؟ قال : أُوصيكم بتقوى الله والسمعِ والطاعةِ ، وإن كان عبداً حبشياً ؛ فإنه مَنْ يعشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور ؛ فإن كل محدثةٍ بدعة ، وكل بدعة ضلالة »

* وروى الطبرانى عن جبير بسند صحيح عن رسول الله ﷺ قال :« أبشروا فإن هذا القرآن طرفُهُ بيد الله ، وطرفُه بأيديكم فتمسكوا به ، فإنكم لن تهلكوا ، ولن تضلوا بعده أبداً » .

* ولقد حذَّر النبى (ﷺ ) من الإعراض عن السنة كما روى أحمد وأبوداودَ والترمذيُّ وابن ماجه وغيرهم بسند صحيح عن أبي رافع رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أُلفيَنَّ أحدَكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمرُ من أمري مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه ، فيقول : لا أدري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه وإلاَّ فلا » .

وكما روى أبو داود والترمذى وأحمد بسند صحيح عن المقدام بن مَعْدِي كَرب (رضي الله عنه)

(١) كما رواه مالك بلاغاً ، ووصله الحاكم عن أبي هريرة ، لكن في إسناده صالح بن موسى الطلحى ولذا عزوت الحديث لابن عباس لِحُسن الإسناد (انظر مشكاة المصابيح ١٨٦) .

قال : قال رسول الله ﷺ :« ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثْلَهُ معه ، ألا يوشكُ رجلٌ شبعانُ على أريكته يقولُ : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه ، وإن ما حرَّم رسولُ الله كما حرَّم اللهُ ، ألا لايحلُ لكم الحمارُ الأهلي ، ولاكلُّ ذي نابٍ من السباع ولالقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبُها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْروه فإن لم يَقْرُوه فله أن يُعْقِبَهم بمثل قراه »[1] .

* وروى الحاكم عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال :« أوصيكم بأصحابى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب ، حتى يَحْلف الرجل ولايستحلفُ ، و يَشهد ولايُستَشهد ، فمن أراد منكم بحبوحةَ الجنة فلْيلزم الجماعةَ ، فإن الشيطانَ مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعدُ ، ألا لايخلُوَنَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان ، – قالها ثلاثاً – وعليكم بالجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ، ألا ومَنْ سَرَّته حسنتهُ وساءته سيئتهُ فهو مؤمن » .

* وأخرج أحمدُ في المسند عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : « الجماعة رحمةٌ ، والفرقة عذاب » .

وروى الحاكم [2] عن ابن عباس بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال :« لا يجمع اللهُ أمتي على ضلالة أبداً ، ويَدُ الله على الجماعة » .

وروى أحمد وأبوداود عن أبي ذر بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال :« من فارق الجماعة شبراً فقد خَلَعَ ربقة الإسلام من عنقه » .

وغير ذلك من النصوص وافر كثير [3] .

كما دلَّت النصوص الشرعية على مراعاة الوحدة وعدم التفرق ، حتى فى الأمور الظاهرة

---

(١) ومعنى يَقروه : أي يضيفوه ، ومعنى يُعقِبهم : يأخذ منهم عوضاً عما حرموه من القِرى كما فى « النهاية في غريب الحديث » .

(٢) وروى الترمذي شطره الثاني بلفظ «يد الله على الجماعه» وقال : هذا حديث حسن غريب لانعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه . كما رواه بلفظ مقارب للفظ الحاكم عن ابن عمر لكن استغربه الترمذي لأن في اسناده سليمان المدني وهو ضعيف كما في التقريب .

(٣) انظر كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من « صحيح البخارى » مع شرحه « فتح البارى» و«الرسالة » للشافعى و« مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة » للسيوطى و« الحديث حجة بنفسه فى العقائد والأحكام » للألبانى سلَّمه الله .

لما لَها من تأثير على القلوب وللعلاقة (1) المتيقنة بين الظاهر والباطن ، كما روى الشيخان عن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إنَّ الحلال بيّنٌ ، وإن الحرامَ بيّن ، وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى ، يوشكُ أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملكٍ حمى ، ألا وإنَّ حمى اللّه محارمُه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسدُ كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسدُ كله ألا وهي القلبُ » .

ويؤكد العلاقةَ بين القلب وغيره من الأعضاء مارواه أبوداود وغيره بسند صحيح عن النعمان بن بشير : أقبل رسولُ الله ﷺ على الناس بوجهه فقال : « أقيموا صفوفكم .. ثلاثاً واللّه لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن اللهُ بين قلوبكم » .

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ « كان يمسح المناكب في الصلاة ويقول : استووا ، ولاتختلفوا فتختلفَ قلوبُكم » ، وفي هذين الحديثين دليل على أن عدمَ صلاح هذا الأمر الظاهر الذي هو تسوية الصفوف سببٌ للتفرقة بين القلوب ، كما أقسم على ذلك الصادقُ الأمين (عليه الصلاة والسلام) ولهذا بادر الصحابةُ رضي الله عنهم إلى الاستجابة لأمر النبي ﷺ ، إذ يقول النعمانُ بن بشير (رضي الله عنهما) : « فرأيت الرجلَ يلصقُ مَنكِبَه بِمَنْكِبِ صاحبه ، وركبتَه بركبة صاحبه وكعبَه بكعبه » (2) .

ومن هذا الباب مارواه أحمدُ وغيرهُ بسند صحيح عن أبى ثعلبة الخشني (رضي الله عنه) قال : كان الناسُ إذا نزل رسولُ الله ﷺ منزلاً فعسكر تفرقوا عنه فى الشِّعاب والأودية ، فقال رسول الله ﷺ :« إنما ذلكم من الشيطان » قال فكانوا بعد ذلك إذا نزلوا انضم بعضُهم إلى بعض حتى إنك لتقولُ : لو بسطت عليهم كساءً لعمّهم « أو نحو ذلك » .

ومنه مارواه البخاري في صحيحه عن أبي واقد الليثى : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناسُ معه إذ أقبل ثلاثةُ نفرٍ ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحدٌ ، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخرُ فجلس خلفهم ، وأما الثالثُ فأدبر ذاهباً فلما فرغ رسول الله ﷺ قال :« ألا أخبركم عن النفر الثلاثة :

---

(1) استفدت هذا التنبيه من فضيلة شيخنا الألباني .

(2) وبهذا تعلم أن الحرص على تسوية الصفوف بالأقدام وحدها خلاف السنة .

أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه اللهُ ، وأما الآخرُ فاستحيا فاستحيا اللهُ منهُ ، وأما الآخر فأعرض فأعرض اللهُ عنهُ » .

فانظرَ أخي المستمع ترغيبُ الشرع في الاجتماع وإن كان في أمر من الأمور الظاهرة ، ومن هنا نعلم أن الإسلام يحثّ على تصحيح المظهر والمخبر ، ولذا كانت العناية بالمظهر الإسلامي شيئاً مطلوباً كإعفاء اللحية ، وعدم إسبال الثياب تحت الكعبين ، وعدم التشبه بالمشركين مع أن بعض هذه الأمور ربما كان للعقيدة في القلب منه نصيب مع أننا نقول : إن الشمولية في الدعوة أمرٌ ضروري ، والبدءُ بالأهمّ من ضروريات الدعوة ، ونؤمنُ ونسلمُ بكل ما أوجبه الشرع أوحثّنا عليه .

كما أن للمظهر دلالات شرعية تبنى عليه أحكام خاصة كما في قصة [1] أسامة بن زيد ، حيث قتل مَنْ نطق بالشهادتين عندما غشيه ، فلمّا قدم المدينةَ بلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال له :« يا أسامة أقتلتَه بعدما قال : لا إله إلا الله ؟ ! » وفي رواية قلت : يا رسول الله ، إنما قالها خوفاً من السلاح ، قال :« أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ »

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال :« إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر للناس من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمّناه وقرّبناه ، وليس لنا من سريرته شيءٌ، اللهُ يحاسبُ سريرته ، من أظهرلنا سوءاً لم نأمنه ، ولم نصدقْه ، وإن قال : إن سريرته حسنة » .

ولقد عقد الإمام النووي في رياض الصالحين [2] باباً قال فيه :« بابُ إجراء أحكام الناس على ظاهرهم ، وسرائرهم إلى الله تعالى » .

والنصوص في هذا كثيرة .

وأما أئمتنا الأعلام فقد ورثنا عنهم نصوصاً [3] زاخرة عظيمةً في الحضّ على التمسك بالكتاب والسنة ، وكان لسانُ حالهم ومقالهم أجمعين ما قاله الشافعي (رحمه الله) :« أجمع المسلمون على أن من استبان له سنةٌ عن رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد » [4]

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) ص (١٨١) من رياض الصالحين .

(٣) انظرها في « مقدمة المجموع للنووي » (٦٣/١) و« إيقاظ أولي الأبصار » للفلاّني و« جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر «وإعلام الموقعين عن ربِّ العالمين » (٢ / ٢٠٠) وانظرها أيضاً في مقدمة صفة صلاة النبي ﷺ للألباني (حفظه الله) .

(٤) إعلام الموقعين ( ٣٦١/٢ ) .

هذه أقوال الأئمة الأربعة فى التمسك بالكتاب والسنة مجموعة [1] في نظم ذكرَه العلاّمةُ المحدِّث صالح الفُلاَّني صاحب قطف الثمر وإيقاظ همم أولي الأبصار :

قـــال أبوحنيفـــةَ الإمـــــام ... لا ينبغـــى لمـــن لـــه إســـلام
أخْـذٌ بأقـوالي حتى تعرضـــا ... على الكتاب والحديث المرتضى
ومـــالك إمـــام دار الهجـــرة ... قال وقـد أشارَ نحـو الحجـرة
كـــل كـلام منـــه ذو قَبـولِ ... ومنـــه مردودٌ ســوى الرســـول
والشافعي قال إنْ رأيتـــــمُ ... قـــولي مخالفـــاً لمـــا رَوَيْتُـــمُ
من الحديث فاضربوا الجدارا ... بقـــوليَ المخـــالفَ الأخبـــارا
وأحمد قـال لهم : لا تكتبـوا ... مـا قلتُه بل أصلُ ذلك اطلبـوا
فاسمعْ مقالاتِ الهداة الأربعة ... واعمـلْ بهـا فـإنَّ فيها منفعـة
لقمعهـــا لكـــل ذي تعصـبِ ... والمنصفـــون يكتفـــون بالنبـــي

ويجبُ أن نظن خيراً فى الأئمة الأعلام (رحمهم الله أجمعين) وأنهم وإن وجدنا ما يخالف النص من أحدهم أحسنَّا الظنَّ به وجوباً للأعذار المعروفة لهم في ذلك والتي بسطها شيخُ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في رسالته القيمة « رفعُ الملام عن الأئمة الأعلام » . وإننا لانتصور مسلماً يعرض عن الدليل بلاحجة لأنه بذلك يعرِّض نفسَه للفتنة وتسقط عدالته كما قال الحافظ [2] ابن عبد البر (رحمه الله) ، فكيف يُتَصوَّرُ الإعراضُ من الأئمة الأجلّة الذين أفْنَوْا أعمارهم في خدمة هذا الدين ونصرته إضافة لما أُثِرَ عنهم من حضٍّ على الاتّباع .

ويجدر أن أشير إلى أن الاختلافَ الواقع بين الأئمة في المسائل إنما هو على قسمين : اختلافُ تنوعٍ ، واختلافُ تضاد ، كما حرَّره شيخُ الإسـلام في كتـابه « اقتضاءُ الصراط المستقيم » [3] وبيان ذلك .

---

(١) انظرها في « الصوارم والأسنة في الذب عن السنة » (ص ١٩) .
(٢) نقل ذلك عنه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» .
(٣) (ص ٣٧ – ٤٠) وذكرت هذه الأنواع أيضاً في « شرح العقيدة الطحاوية » (ص ٥٥٠ فما بعدها) .

أن اختلاف التنوع على أربعة وجوه :

الأول : مايكون كلُّ واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابةُ حتى زجرهم رسولُ الله عن الاختلاف كما روى مسلم عن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) قال : سمعت رجلاً قرأ آيةً سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ خلافَها ، فأخذتُ بيده ، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فذكرتُ ذلك له فعرفتُ في وجهه الكراهيةَ وقال :« كلاكما محسنٌ ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

ومن هذا النوع من اختلاف التنوع الاختلافُ فى صفة الأذان حيث ورد ترجيعُ الشهادتين أي يخفض المؤذنُ صوتَه فيهما ، ثم يعيدهما رافعاً بهما صوتَه ، وورد بدون ترجيع أيضاً ومثلُه الاختلاف في صفة الإقامة ، حيث ورد الشفع فيها كالأذان إلا ( قد قامت الصَلاة ) مرتين وورد الوتر كما هو معروف متداول .

ومنه الاختلافُ في أدعية الاستفتاح في الصلاة ، حيث نُقِلَتْ صيغٌ متعـــددة عـــن رسول الله ﷺ في ذلك وكذا صيَغُ التشهد والصلاة على النبي ﷺ وأذكار الركوع والسجود إلى غير ذلك مما شُرِع لنا جميعُه وإن كان قد يقال : إن بعض أنواعه أفضل .

ويقولُ شيخ الإسلام : ثم نجد لكثير من الأمة في ذلك (أي في هذا الوجه من الاختلاف) من الاختلاف ما أوجب اقتتالَ طوائف منهم كاختلافهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك ، وهذا عينُ المحرَّم ، ومن لم يبلغ هذا المبلغ فتجد كثيراً منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع والإعراض عن الآخر أو النهي عنه ما دخل به فيما نهى عنه النبيّ ﷺ .

والوجه الثاني من اختلاف التنوع مايكون كل من القولين في معنى القولِ الآخر ، لكنِ العبارتان مختلفتان ، كما يختلف كثيرٌ من الناس في ألفاظ الحدود والتعريفات وصيغ الأدلة ، والتعبير عن المسميات ، وتقسيم الأحكام وغير ذلك ، ثم الجهل أو الظلم هو الذي يحمل على حَمْدِ إحدى الطائفتين وذمِّ الأخرى .

والوجه الثالث من اختلاف التنوع : مايكون المعنيان غَيْرَيْنِ ، لكن لايتـنافيان ، فهـذا قول صحيح ، وذلك قول صحيح وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر ، وهذا كثير في المنازعات جداً .

والوجه الرابع من اختلاف التنوع مايكون طريقتان مشروعتان ، ولكن قد سلك رجل أو قومٌ هذه الطريقة وآخرون قد سلكوا الأخرى ، وكلاهما حسنٌ في الدين ، ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذمّ أحدهما ، أو تفضيله بلاقصدٍ صالح أو بلاعلم أو بلانيّة .

وحكم اختلاف التنوع بوجوهه السابقة : أن كل واحد من المختلفين مصيبٌ فيه بلا تردد ، لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه . وقد دل القرآن على حَمْد كل واحدة من الطائفتين في مثل هذا إذا لم يحصل بَغْيٌ كما في قوله تعالى: ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذن الله ﴾ [سورة الحشر : ٥] وقد كان الصحابة في حصار بني النضير اختلفوا فى قطع الأشجار والنخيل فقطع قومٌ ، وترك آخرون .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ وداودَ وسليمانَ إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنمُ القومِ وكنا لحكمهم شاهدين ففهّمناها سليمانَ وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ [سورة الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] فخصّ اللهُ سليمانَ بالفهم وأثنى عليهما بالعلم والحكم .

وكما فى إقرار النبيّ يومَ بني قريظة حيث كان أمرَ المناديَ يُنادي « لايصلينَّ أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قريظة» فمنهم من صلّى العصر في وقتها ، ومنهم من أخّرها إلى أن وصل إلى بني قريظة . ولهذا نظائر كثيرة .

والقسم الثاني : اختلاف التضاد وهو القولان المختلفان المتباينان ، كالقول بوجوب شئ من شخص والقولُ باستحبابه من شخص آخر ، أو القول بحرمة شئ من قائل ، والقولُ بإباحته من آخر وماشاكل ذلك .

و هذا القسم الخطب فيه أشدُّ ، لأن القولين يتنافيان ، لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حقٌّ ما ، أو معه دليلٌ يقتضى حقاً ما ، فيردّ الحقّ في هذا الأصل كلّه حتى يبقى هذا مبطلا في البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل . (انتهى بشئ من التصريف والإضافة) وحكم هذا النوع من الاختلاف – أعني اختلاف التضاد – أنه دائرٌ بين الأجر والأجرين للمجتهد ، فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجرٌ واحد كما ورد ، مادام المرء متعلقاً بحبل الله مُتحرياً الوصولَ إلى الحق ، وإن حصل الخلاف بعد هذا فما أحسن ماقيل :« نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضُنا بعضاً فيما اختلفنا فيه»[1] أى مما

---

(١) وهذه قاعدة جليلة بالقيد المذكور إذ ليست على إطلاقها فلا يتهاون فى أمر العقيدة والخلاف فيها إذ هى الأصل والأساس وبغيرها لايستقيم الحال، وقد تنبه للقيد المذكور بعض الدعاة ـ فى أحد البحوث المطبوعة جزاه الله خيراً .

للاجتهاد فيه نصيب الخلاف وإنما الذمّ واقعٌ على من ترك التعلقَ بحبل الله الذي هو القرآنُ الكريم وكلامَ النبي ﷺ بعد بلوغ النصّ إليه وقيام الحجة به عليه (١) .

وإن الفرقة والاختلافَ واقعان في الأمة لامحالة مع تحذير الشرع من ذلك كما سبق لينجو من الوقوع فيه مَنْ شاء الله له السلامة كما قال (تعالى) : ﴿ ولا يـزالون مُختلفين إلا مَنْ رحـم ربك ﴾ [سورة هو : ١١٨ ، ١١٩] فجعل الله أهل الرحمة مُسْتَثْنَيْنَ من العذاب .

روى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه أقبـــل مــع رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه من العالية حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل ، فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ودعا ربَّه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال :« سألتُ ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألت ربي ألا يهلك أُمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألت ربي ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته ألا يجعل بأسَهُم بينهم فمنعنيها » .

وأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال :« يخرج في هذه الأمة – ولم يقل منها – قومٌ تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، يقرءون القرآن لايجاوز حلوقهم – أو حناجرهم – يمرقون من الدين كمروقِ السهم من الرمية » وقد سبق في حديث العرباض بن سارية قولُ النبي ﷺ :« إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيرا » .

وروى أبوداود والترمذي وابن حبان وغيرهم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال :« افترقت اليهودُ على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أُمتي على ثلاث وسبعين فرقة » وفي رواية عن أبي معاوية رواها أبوداود والدارمي وأحمد وغيرهم : « إثنتان وسبعون في النار وواحدةٌ في الجنة وهي الجماعة » والحديث صحيح بروايتيه .

وبعد هذه الفُرقة لابدّ لنا من الخلاص والمخرجِ منها ، حتى نكون من الذين دخلوا في الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ وحتى نكون من الفِرقة الناجية التي هي من أهل الجنة ، إذ الشرع لم يتركنا حيارى ، بل أرشدنا إلى المخرج من هذه

---

(١) انظر الإحكام في أصول الأحكام (٥ / ٦٧ – ٦٨) .

الفتنة ، ففي حديث العرباض بن سارية قال النبي ﷺ بعد ذكر الاختلاف الكثير : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكُوا بها ، وعَضُوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعةٌ ، وكل بدعة ضلالة » .

فهذا الرسول ﷺ يُوصي بالمخرج من فتنة التفرق بالتزام سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، والابتعاد عن الابتداع والإحداث في الدين ، وكما أخبرنا النبي ﷺ عن فضيلة القرون الثلاثة الأولى فيما رواه الشيخان عن ابن مسعود (رضي الله عنه) :« خيرُ الناس قرني ثم الذين يلُونهم ثم الذين يلونهم » وهذه شهادةٌ من رسول الله ﷺ تؤكد الالتزام بما كان عليه الصحابة (رضى الله عنهم) وما كان عليه سلفُ الأمة وقد جاء في روايات حديث افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة : بيانُ الفرقة الناجية وأنها « ما كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » وهذه الرواية لم تصحَّ لدىَّ بعد بحث لِتَفَرُّد [1] عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وهو ضعيف ، وإن كانت صحيحة المعنى إذ أخبر الله (عز وجل) عن صحابته أنهم هم المؤمنون حقاً كما قال سبحانه : ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ [سورة الأنفال : ٧٤] ، وكما أخبر الله أنه رَضِيَ عنهم إذ قال (سبحانه) : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلمَ مافي قلوبهم وأثابهـــم فتحـــاً قريباً ﴾ [الفتح : ١٨] ، ولغير ذلك من النصوص السابقة وغيرها .

ومن هنا لابد لنا من الرجوع في اعتصامنا بالكتاب والسنة إلى ما فهمه السلف الصالح خشيةً من الانزلاق والزلل ، وخوفاً من اتِّباع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ ومن يُشاقق الرسولَ من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غيرَ سبيلِ المؤمنين نُوَلِّه ما تولى ونُصْلِه جهنمَ وساءت مصيراً ﴾ [سورة النساء : ١١٥] وقد قال الشاطبي : (فلهذا كلّه يجب على كل ناظـر فى الدليل الشرعيِّ مراعاة مافهم منه الأولون وماكانوا عليه فى العمل به، فهو أحرى بالصواب ، وأقومُ فى العلم والعمل ) [2] والفرق الإسلاميةُ كلُّها تدَّعى رجوعاً إلى الكتاب والسنة ولكنها بعقائد مختلفة ، ومفاهيم متباينة ، وبتفكيرات متباعدة ، لذا كان لزاماً أن نُحدد ونُقيد بلزوم اتباع فهم السلف إذ كان الصحابة ومن بتلك الفترة حديثو عهد بالنبع الصافي ، ولم تخالطهم فلسفة أو فكر منحرف ، ورحم الله الحافظ ابن حجر القائل : ( وقد توسع من تأخر عن القرون

(١) ومن تيسر له الوقوف على سند صحيح لهذه الرواية فأرجو إفادتي وجزاه الله خيرا .
(٢) الموافقات ( ٣ / ٧٧ ) .

الثلاثة الفاضلة فى غالب الأمور التى أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الدين بكلام اليونان ، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردون إليه ماخالفه من الآثار بالتأويل، ولو كان مُسْتَكْرَهًا ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذى رتبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل ، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامى جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف واجتنب ما أحدثه الخلف، وإن لم يكن له منه بد فليكتف منه بقدر الحاجة ) (١).

إى والله ، السعيد من تمسك بما كان عليه السلف ، واجتنب ما أحدثه الخلفُ فكان أسعد الناس بذلك أهل السنة والجماعة.

قال الحافظ ابن كثير ( رحمه الله ) : ( فأهل الأديان اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة وكلُّ فرقة منهم تزعم أنهم على شئ وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلُّها ضلالةٌ إلاّ واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه..) (٢) .

وقال شيخ الإسلام فى ختام العقيدة الواسطية. ( ولما أخبر النبيُّ ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة وفى حديث عنه أنه قال : « وهم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلامُ الهدى ومصابيحُ الدجى أولوا المناقب المأثورة والفضائل المذكورة .. ) .

ولقد أورد الشاطبى تفسيرات الجماعة فى قوله ﷺ « وواحدة فى الجنة وهى الجماعة » .

ثم قال : ( فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع ، وأنهم المرادون بالأحاديث فلنأخذ بذلك أصلاً ويبنى عليه معنى آخر ) (٣)

وفيما خطَّه رسول الله ﷺ وما خطَّ حوله من خطوط كما سبق فى حديث عبدالله بن مسعود ( رضى الله عنه ) دليلٌ على وضوح خط الجماعة إذ لا التواءَ فيه ولا عوَجَ، فاللهمَّ رحمَتَك.

---

(١) فتح البارى (١٣ / ٢٥٣ ) .
(٢) تفسير ابن كثير ( ٤٣٢/٣ ) .
(٣) الاعتصام ( ٢ / ص ٢٦٠ - ٢٦٥ )

وبالبعد عن الاعتصام بالكتاب والسنة بالمفهوم الذى بينت ظهرتْ بدع كثيرة ، وطوائفُ متعددة، وفرق مختلفة إلى يومنا هذا مع التحذير المستمر من الشرع من الابتداع فى الدين ، لأن فى الابتداع انتقاصاً من كمال الرسالة إذ يقول ربنا ( تبارك وتعالى ): ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾ [ سورة المائدة : ٣ ]. هذه الآية التى قال فيها اليهود لعمر ( رضى الله عنه ) كما رواه مسلم وغيره : « إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً !! فقال عُمر : إنى لأعلمُ حين أُنزِلَتْ ، وأين نزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أُنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة » قال سفيان : وأشك كان يوم الجمعة أم لا ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾ ، الآية [ وشَكُّ سفيان هنا تورعٌ هل أخبره شيخهُ بذلك أم لا لأن الوقوف فى حجة الوداع بعرفة كان يوم الجمعة ولم يختلف فيه أحدٌ من أصحاب المغازى والسير ولا من الفقهاء وقد وردت فى ذلك أحاديث متواترة لايُشَك فى صحتها ]

وقال الإمام مالك ( رحمه الله تعالى ) : « ومن ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنةً فقد زعم أن محمداً خان الرسالة اقرءوا قولَ ربكم : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فما لم يكن يومئذٍ ديناً لايكون اليوم ديناً ولايصلح آخرُ هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلُها » .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحذّر من الابتداع كما فى قوله ﷺ : « إياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالةٍ فى النار » ، وقوله ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » متفق عليه عن عائشة ( رضى الله عنها ) وقوله ﷺ : « إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة » رواه أبو الشيخ فى تاريخ أصفهان والطبرانىُّ فى الأوسط بإسناد حسن عن أنس ( رضى الله عنه ) ، ولقد روى البخارى أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها ، فقالوا : أين نحن من النبى ﷺ ؟ وقد غُفِر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أُفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساءَ فلا أتزوج أبداً فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى أخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأُفطر، وأُصلى وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منّى » .

أقول : إذا كان هذا هو تحذير النبى ﷺ من عبادة مشروعة فى الأصل كالصيام والقيام

والزهد فى الدنيا لكنها جاءت بِقَيْد وطريقة على غير الطريقة التى كان عليها النبى ﷺ فكيف بإحداث بدعٍ ليس لها أصلٌ ألبتة فى الشرع ؟!.

وروى الدارمى بسند صحيح عن عمر بن يحيى قال : سمعت أبى يحدِّث عن أبيه قال : كنا نجلس على باب عبدالله بن مسعود فى صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبوموسى الأشعرى فقال : أخَرجَ إليكم أبو عبد الرحمن بعدُ ؟ قلنا : لا ، فجلس معنا حتى خرج ، فلما خرج ، قمنا إليه جميعاً فقال له أبو موسى : يا أبا عبدالرحمن ، إنى رأيتُ فى المسجد آنفاً أمراً أنكرته ، ولم أر والحمد لله إلا خيراً ، ثم قال : فما هو ؟ فقال : إن عشتَ فستراه ، قال : رأيت فى المسجد قوماً حِلَقاً جلوساً ينتظرون الصلاة فى كل حلقة رجل وفى أيديهم حصىً، فيقول :كبِّروا مئة فيكبرون مئة، فيقول : هَلِّلُوا مئة ، فيهللون مئة، ويقول : سبحوا مئة فيسبحون مئة ، قال : فماذا قلتَ لهم ؟ قال : ماقلت لهم شيئا انتظار رأيك أو انتظـــار أمـــرك ، قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم ، وضمنتَ لهم ألا يضيع من حسناتهم شئ ، وَيْحكُم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم ، هؤلاء صحابة نبيكم ( ﷺ ) متوافرون ، وهذه ثيابه لَم تُبْلَ وآنيته لم تكسر ، والذى نفسى بيده ، إنكم على ملة هى أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة ، قالوا : يا أبا عبدالرحمن ماأردنا إلا الخير قال : وكم من مريد للخير لن يصيبه ، إن رسول الله ( ﷺ ) حدثنا أن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم وايم الله ، ما أدرى لعل أكثرهم منكم ، ثم تولَّى عنهم » فقال عمرو بن سلمة ـ أحد رواة الإسناد ـ رأيت عامة أولئك الخلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج .

ولقد جاء رجل إلى الإمام مالك فقال له : من أين أُحرم ؟ فقال له : من حيث أحرم الرسول ﷺ ( أى من ذى الحليفة ) فقال له السائل : أفلا أُحرم من عند الحجرة ؟ قـــال له : لا ، أخشى عليك الفتنةَ قال : أىّ فتنة هذه إنْ هى إلا أميالٌ أزيدُها ؟! فقرأ قوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [ ســـورة النور : ٦٣] .

وغير ذلك من النصوص والآثار كثير (١).

ومن أبرز الآثار الناتجة عن ترك الاعتصام بالكتاب والسنة الابتداعُ فى باب الإيمان بالله وأسمـــائهِ وصـــفاته ، وظهـــور التأويل والتحريف والتعطيل والتمثيل والتشبيه ، مع أن الأمة فى

---

(١) انظر لذلك « البدع والنهى عنها » لابن وضاح القرطبى و« الباعث على إنكار البدع والحوادث » لأبى شامة و«الإبداع فى مضار الابتداع » لعلى محفوظ وأجودها « الاعتصام » للشاطبى فاظفر به .

الصدر الأول وفى القرون الثلاثة لم تعرف إلا الإيمان الكامل والتسليم المطلق فى كل ماأثبته اللهُ لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تشبيه ولا تحريف ولاتعطيل كما أرشدنا ربنا فى قوله تعالى﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير﴾ [ سورة الشورى : ١١ ] فهذا إثبات لله عز وجل مع نفى المشابهة والمماثلة ، فهاتان قاعدتان عظيمتان ، مَنْ سار عليهما نجا بإذن الله.

قال شيخ الإسلام عن الصحابة ( رضى الله عنهم ) فى هذا الشأن :

( لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلّهم على إثبات مانطق به الكتابُ والسنةُ كلمةً واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً، ولم يُحرفوها عن مواضعها تبديلاً ، ولم يُبْدوا لشئ منها إبطالاً ، ولا ضربوا لها أمثالاً ، ولم يدفعوا فى صدورها وأعجازها ، ولم يقل أحد منهم : يجب صرفُها عن حقائقها وحملُها على مجازها بل تَلَقَّوْها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم وجعلوا الأمر فيها كلّها أمراً واحداً وأجْرَوْها على سنَنٍ واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع ، حيث جعلوها عضين وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين ، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه ) (١) .

وقال شيخ الإسلام أيضاً : ( ولقد طالعتُ التفاسير المنقولة عن الصحابة ، ومارووه من الحديث ، ووقفتُ من ذلك على ماشاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم أجد لساعتى هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المعروف ) (٢).

ولذا كان مذهبُ السلف هو الأسلم والأعلم والأحكم ، وقد سبق عن الحافظ ابن حجر (رحمه الله ) أن السعيد من تمسك بما كان عليه السلف واجتنب ما أحدثه الخلف .

وفى الابتعاد عن الاعتصام بالكتاب والسنة تصدّع الصفُّ وازدادت الفرقةُ عندما أصبح الولاء والبراء للمذهب والحزب والجماعة.

ولقد ساد التعصب المذهبي حتى غدا كشرائع متعددة كما صرح بذلك بعضُهم (٣) .

---

(١) إعلام الموقعين (٤٩/١)
(٢) مجموعة الفتاوى (٣٩٤/٦)
(٣) انظر « فيض القدير » للمناوى ( ٢٠٩/١ ) .

ولقد وجه ثلاثة من مسلمى اليابان رسالة يستفتون فيها العلامة الشيخ محمد سلطان المعصومى - رحمه الله - وهو أحد مدرسى المسجد الحرام يسألونه فيها : ماحقيقة دين الإسلام ؟ .

ثم مامعنى المذهب ؟ .

وهل يلزم على من تشرف بدين الإسلام أن يتمذهب على أحد المذاهب الأربعة ؟ أى أن يكون مالكياً أو حنفياً أو شافعياً أو حنبلياً أو غيرها ، لأنه وقع اختلاف عظيم ونزاع وخيم حينما أراد عدة أنفار من متنورى الأفكار من رجال اليابان أن يدخلوا فى دين الإسلام ، ويتشرفوا بشرف الإيمان ، فعرضوا ذلك على جمعية المسلمين فى طوكيو فقال جمع من أهل الهند ينبغى أن يختاروا مذهب الإمام أبى حنيفة لأنه سراج الأمة ، وقال جمع من أهل أندونسيا « جاوا » يلزم أن يكون شافعياً فلما سمع اليابانيون كلامَهم تعجبوا جداً ، وتحيروا فيما قصدوا وصارت مسألة المذهب سداً فى سبيل إسلامهم » انتهى.

ولهذا ألف المعصومى - رحمه الله - رسالة طبعت باسم « هدية السلطان إلى مسلمى بلاد اليابان » أو « هل المسلم مُلْزَمٌ باتباع مذهبٍ معين من المذاهب الأربعة ؟» .

وما أجمل ماقال العلاّمة الأمير الصنعانى :[1]

عـلامَ جعلتـم أيهـا النـاس ديـننـا ... لأربعـةٍ لا شـك فى فضلهم عـندى
هـم علمـاءُ الديـن شرقـاً ومغربـاً ... ونـورُ عيـون الفـضل والحق والزهـد
ولكنهـم كالنـاس ليـس كلامُـهـم ... دليلاً ولاتقلـيدُهم فى غـد يـُجدى
ولا زعمـوا حاشاهـم أن قـولهـم ... دليلٌ فَيَسْتَهْدى بـه كـل مـن يهدى
بـل صرحـوا أنـا نقابـل قولهـم ... إذا خـالف المنصوصَ بالقـدح والردَّ

والعجب أن المقلدين يستدلون بما يُرْوَى « اختلاف أمتى رحمة » مع أنه حديث مكذوبٌ لا أصل له إذ لو كان الاختلاف رحمةً فماذا يكون الاجتماعُ والاتفاق ؟! واللهُ يقول : ﴿ولا يزالون مختلفيـن إلا من رحـم ربك﴾ أقـول : مع استدلالهـم بهذا فهـم أشـد الناس فرقة. وماتعـددُ

---

(١) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد للصنعانى ( ص ١٤٤ ) .

المحاريب فى المسجد الواحد كالذى كان فى المسجد الحرام والذي لايزال فى بعض المناطق ، لكل إمام محرابٌ ، تُصلى فيه صلاة الجماعة لأهل هذا المذهب ، ومنعُ الزواج من المخالف للمذهب عند بعض الجامدين ، إلا دليل على أن اختلافهم عذابٌ ، وليس برحمة. وأين هم من قوله ( تعالى ) ﴿ وإنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بمالديهم فرحون ﴾ [ سورة المؤمنون : ٥٢ ، ٥٣ ]

قال ابن القيم ( رحمه الله ) : الزُبُر : الكتبُ ، أى كلُّ فرقة صنفوا كتباً أخذوا بها وعملوا بها ودَعَوا إليها دون كتب الآخرين كما هو الواقع سواء » (١).

وقال أيضا فى قوله ( ﷺ ) « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً » :

( وهذا ذم للمختلفين وتحذيرٌ من سلوك سبيلهم وإنما كثر الاختلاف وتفاقم أمرُه بسبب التقليد وأهله ، الذين فرقوا وصيروا أهله شيعاً ، كلُّ فرقةٍ تنصر متبوعَها ، وتدعو إليه ، وتذم مَنْ خالفها ، ولا يرون العمل بقولهم ، حتى كأنهم ملة أخرى سواهم ، ويدأبون ويكدحون فى الرد عليهم ، ويقـولون : « كُتُبُهُم » و« كتبنا » و« أئمتهم » و« أئمتنا » و« مذهبهم » و «مذهبنا» هذا والنبى واحد ، والقرآن واحـد ، والرب واحد ، فالواجب على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواء بينهم كلهم ، وأن لايطيعوا إلا الرسول ( ﷺ) ولايجعلوا معه من يكون أقواله كنصوصه ، ولايتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله ، فلو اتفقت كلمتهم على ذلك ، وانقاد كل واحدٍ منهم لمن دعاه إلى الله ورسوله ، وتحاكموا كلهم إلى السنة وآثار الصحابة لقل الاختلاف ، وإن لم يعدم من الأرض ، ولهذا تجد أقل الناس اختلافاً أهل السنة والحديث ، وليس على وجه الأرض طائفة أكثر اتفاقاً وأقل اختلافاً منهم ، لما بنوا على هذا الأصل ، وكلما كانت الفرقة عن الحديث أبعد كان اختلافهم فى أنفسهم أشد و أكثر ، فإن من رَدَّ الحق مرج عليه أمره واختلط عليه ، والتبس عليه وجه الصواب ، فلم يدر أين يذهب كما قال ( تعالى) : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج ﴾ [سورة ق : ٥] (١) .

وقال ابن القيم أيضا : ( ونحن لاندَّعى أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله فى كل مسألة من مسائل الدين، دقه وجله . وإنما أنكرنا ماأنكره الأئمة ومن تقدمهم من الصحابة والتابعين ، وماحدث فى الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة فى القرن الرابع المذموم على

---

(١) إعلام الموقعين ( ٢ / ٢٤٥ )

لسان رسول الله ( ﷺ ) ، من نصب رجل واحد ، وجعل فتاويه بمنزلة نصوص الشارع ، بل تقديمها عليه ، وتقديم قوله على أقوال من بعد رسول الله ( ﷺ ) من جميع علماء أمته ، والاكتفاء بتقليده عن تلقى الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة.. ) (١)

أقول : لست أريد بالعصبية المذهبية العامة من الناس وإن كان الواجب أن يتعلموا ماأوجب الله عليهم ، لكن مصيبتنا فيمن يدعى العلم أو ينظر إليه بمنظار العلم أو هو من أهل العلم.

فهذا شيخ كبير ذو لقب شهير ـ عفا الله عنا وعنه ـ يقول فى إحدى المسائل مسطورا : والذى يقتضيه الحق والإنصاف ترجيح مذهب الشافعى ( رحمه الله ) ولكن نحن ملزمون بتقليد الإمام أبى حنيفة !!.

وهذا آخر يقول فى كتابه بعد ذكر أدلة المذهب : أحاديث الخصوم !!! وغير ذلك كثير ، والمقام لايتسع لزيادة بسط ، وهذا له حديث آخر (٢) ، ومن لطائف مانحن فيه أنه جاء مشـــوش إلى حلقة الشيخ عبدالرحمن الإفريقى ـ رحمه الله ـ فى المسجد النبوى خلال درسه ، وسأله عن مذهبه فأجاب الشيخ : مذهبى مذهب الإمام مالك ، ومضى فى درسه (٣).

نعم من كان داعياً إلى التمسك بالكتاب والسنة فهو الجدير بأن ينسب إلى الأئمة لما تقدم من أقوالهم وما عرف من أحوالهم مع أن الشيخ ( رحمه الله ) قال : مذهبى مذهب الإمام مالك ولم يقل : إنى مالكى . لأن مذهب الإمام مالك إنما هو اتباع الدليل ، وهذا من فقه الشيخ ( رحمه الله ) فى الدعوة.

أقول : بفضل الله عز وجل ثم بجهود الدعاة إلى الكتاب والسنة قل التعصب المذهبى فى عصرنا ، وكما أصبح الفقه المقارن بالأدلة يدرس فى كثير من الجامعات ، التى كانت تدرس المذاهب المنفصلة فى زمن سابق ، كما شهد بذلك بعض الدعاة فى أحد البحوث المطبوعة وغيرها . ولكن لئن ذهبت هذه البدعة عند بعضهم فقد حلت محلها بدعة ذميمة أخرى ، ألا وهى التعصب للجماعة أو الحزب . وازداد الطين بلة بطلب بعض الجماعات المبايعة لها ، وهذه البيعات التى لايعرفها الإســلام للجماعات والأحزاب ، إذ هى بيعة بدعية زادوا شتات شباب

(١) المصدر السابق نفسه ( ٢ / ٢٦٣ ) .

(٢) انظر لذلك : « مالا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين » لعبد الجليل عيسى و« الاتباع » للعلامة ابن أبى العز الحنفى رحمه الله و« بدعه التعصب المذهبى » لمحمد عيد العباسى .

(٣) ذكرها لى أحد كبار أهل العلم حفظه الله.

المسلمين بسببها، والبيعة المشروعة إنما هى للإمام الحاكم المسلم.

فهذا داعية كبير يقول عن جماعته : « إنها لا غيرها هى التى ينبغى أن يضع المسلم يده فى يدها » ويقول أيضا : « بهذا لا يسع مسلماً أن يتخلف عن هذه الدعوة » ويقول : « إن البيت المسلم الكامل هو الملتزم بمبادئ ( وسمى جماعته ) ، لأن ذلك هو الكمال الإسلامى المعاصر» ويقول أيضا : « إذا كانت الجماعة هذا شأنها فلا يجوز لمسلم الخروج منها قال عليه الصلاة والسلام : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » انتهى.

فالإسلام اليوم عند بعض الناس أصبح ينظر إليه فى إطار حزبى ، فمن انتهى إلى هذا الإطار كان له مالهم وعليه ما عليهم وإلا فلا . وقد نتج عن ذلك قرارات من بعض الناس بمقاطعة بعض أهل العلم ، بل حصل فى مؤتمر لجماعة أن رُفض لأمير جماعة إسلامية أخرى التحدث والمشاركة فى المؤتمر ، مع السماح منهم لرجل هندوسى بإلقاء كلمة فى المؤتمر!!! والأمثلة فى هذا كثيرة ، والصور متعددة للأسف ، وتتفاوت من جماعة لأخرى ومن فرد لآخر ، إلا من رحم ربك إذ أصبح المقياس مقياساً حزبياً لامقياساً شرعياً نوالى فيه من والى الله ونعادى فيه من عادى الله .

وقد يدعى رجل انتسابه لجماعة أو منهج حق لاغبار عليه ولكن الرجل مخل بالتزامه الشرعى فيما أوجب الله عليه ، وبالمقابل ، قد نجد شخصاً ينتسب لجماعة عليها ماعليها من ملاحظة فى المنهج ، ولكن الشخص ملتزم بتعاليم الإسلام وبالعقيدة الصحيحة ، فالقضية إذن التزام بالإسلام وتعاليمه ، وليست شعارات براقة ترفع وينادى لأجلها ويحب ويبغض فيها ، وتطلب البيعة الحزبية المبتدعة فى إطارها .

وفى المقابل حصلت تحالفات مع أهل الكفر والضلال فى بعض الجهات بين الجماعات الإسلامية وفئات كافرة بالله أصلاً. كما حصلت تنازلات بل مشاركات خطيرة لأهل البدع والضلالات الخطيرة لأجل المشاركة فى انتخابات البرلمان، وقامت مسيرات شعبية فى بعض البلاد تنادى بتطبيق الشريعة الإسلامية ويرافق المسيرة هتافات ، بالاستغاثة بغير الله وطلب المدد من غيره. كما قام أمير جماعة إسلامية فى منطقة مابوضع الكساء على أحد القبور ، التى لو رآها الإنسان لاقشعر بدنه مما آل إليه أمر المنتسبين إلى الإسلام من الشرك والوثنية حتى إن ذلك القبر ليعظم كبيت الله ويتسابق على الماء من هناك كماء زمزم. مع العلم أن هذا الرجل ربما لايعتقد تلك الاعتقادات ، لكن يفعل مثل هذا لأجل كسب أصوات هذه الطائفة فى

الانتخابات التى عرف مصيرها وأشباهها.

فهل بهذا الطريق تنال الحكومة الإسلامية ؟ وأين نحن من قول الله عز وجل :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ﴾ [ سورة النور : ٥٥ ] فالاستخلاف فى الأرض والتمكين والأمن لا يكون إلا بالإيمان الحق بالله ( عز وجل ) وبتحقيق العبادة لله ( تبارك وتعالى ) وترك الشرك بالله وبهذا الاستعداد يمكننا مواجهة الكفرة والملحدين والصليبيين والباطنيين حتى يتحقق وعد الله (عز وجل).

ولقد حصل بالغفلة عن الاعتصام بالكتاب والسنة مؤازرة الرافضة ، وطارت صيحات تنادى بالتآخى معهم مع التباين الواضح فى العقيدة بيننا وبينهم!! ولقد تولت إحدى الجماعات الشهيرة المنادية بتطبيق الحكم الإسلامى العناية بنشر ترجمة كتاب « الحكومة الإسلامية » وقدم أمير الجماعة فى تلك المنطقة للكتاب بمقدمة ، ووضعت عليها صورة مؤلفه ، ولقد وزع الكتاب على مراكز الجماعة ، وبيع فيها !! ولقد اقتنيت نسخة من ذلك الكتاب.

ولقد كتب بعض الدعاة كتابات وأشعاراً سجلها التاريخ عليهم فى مدح الثورة الرافضية البائسة والثناء عليها . ولقد جمعها أحد الرافضة فى كتاب خاص طبعه القوم ليروجوا بعض ضلالاتهم ، ولما رأى الإخوة الذين انزلقوا فى هذا الأمر زيف دعوى أولئك بقولهم : إننا إخوة لكم ولا فرق بيننا وبينكم : حصل تراجع كبير عن تلك التأييدات ، لكنى أتساءل هل كنتم عالمين سابقاً بأصول تلك الفرقة وماكتب ذلك الرجل ؟ أم كنتم تجهلون ذلك ولكم العذر ؟ كما أنّ السؤال لا يزال قائماً إذ ماعذركم أمام ربكم عندما علمتْ بعض قياداتكم خطورة الأمر ، وبقى الإصرار منكم ، ولاقى بعض الناصحين مالاقوه تجاه نصيحتهم ؟ فما جوابكم أمام رب العالمين حيث لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ؟

أم أنّ همّ التجمع والحرص على وحدة الكلمة لكل من ينطق بـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولو لم يعمل بمقتضاها: كان غالباً عليكم وما أجمل ماقيل « العقيدة أولاً لو كانوا يعلمون »[1] فالمطلوب هو الاعتصام بالكتاب والسنة ، لا الاعتصام مطلقاً بأى حبل . وهذا

(١) ألقيت محاضرة بهذا العنوان وطبعت مستقلة نشرتها مكتبة الدار بالمدينة المنورة فاحرص عليها.

يذكرني بحكاية تحكى أن رجلاً لقى يهودياً فقال له : أسلم وإلا أقتلك ، فسلَّم اليهودى أمره للرجل وقال له : أَسْلِم فكيف أُسْلِمُ ؟ قال الرجل : لا أدرى [(١)].

وقد لاقى الدعاة إلى الكتاب والسنة فى أنحاء المعمورة وعلى مرّ السنين تهماً شتى تزيد فى ميزان حسناتهم يوم القيامة إن شاء الله ، وقد قال الإمام الحافظ أبوحاتم الرازى فى خاتمة رسالته ( أصول السنة واعتقاد الدين ) : « علامة أهل البدع الوقيعة فى أهل الأثر ، وعلامة الجهمية أن يسموا أهل السنة مشبهة ونابتة ، وعلامة القدرية أن يسموا أهل السنة مجبرة ، وعلامة الزنادقة أن يسموا أهل الأثر حشوية ، يريدون إبطال الآثار » [(٢)].

وهذه التهم المتزايدة المتوالدة لم يسلم منها داعية إلى الحق. وقد لاقى الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ) أنواعاً من الأذى فى سبيل دعوتهم ولم تنقص هذه التهم من مكانتهم ورفعتهم.

وأمّا رمى الدعاة إلى الكتاب والسنة بأنهم يفرِّقون وحدة الصف ، فإنى أسأل : من الذى يفرق الصف والجماعة ؟ هل الذين يدعون إلى عقيدة التوحيد ، وإفراد الله بالعبادة ، وإنقاذ الناس من الشرك الذى استأصل فى كثير من المسلمين بصور مختلفة إلا ماشاء الله ، ويدعون إلى اتباع الرسول ( ﷺ ) وماكان عليه سلف الأمة المشهود لهم بالخير من الرسول (ﷺ ) ؟! أم الذين يدعون إلى التعلق بغير الله والشرك بالله ويفرقون الناس حتى فى صلواتهم ؟ كما سبق وغير ذلك من مظاهر الفرقة الناتجة عن البدع المختلفة التى ماحصل للمسلمين من الويلات والنكبات إلا بسببها والإعراض عن الكتاب والسنة. ﴿ فأى الفريــقين أحــق بالأمن ﴾ [ سورة الأنعام : ٨١ ] [(٣)] مع أن التفريق بين الحق والباطل والشرك والتوحيد والسنة والبدعة مما قررته الشريعة مع بذل النصيحة.

وأخيراً أقول : إنى لاأستطيع أن أوفى هذا الموضوع العظيم حقه ، إذ صلاح البشرية أجمع مرهون باعتصامهم بالكتاب والسنة ولايصلح لهم حال، ولايهدأ لهم بال إلا إذا عادوا إليهما ، وإنما هذه معالم وأضواء أرجو أن تنير الطريق ، وتوضح السبيل لنا ولجميع العاملين حتى يكون الكتاب والسنة مصـدراً للتشريع ، ومرجعاً عند كـل خلاف ، وتطبيقـاً فى الحيـاة

---

(١) حكى لى اثنان من علماء الهند أنه فى عام ١٩٣١م حصل ثورة للمسلمين ضد الهندوس وحصل مثل هذا بالفعل.

(٢) انظر قواعد التحديث للقاسمي ( ص ٥٨ ) و« سلسلة الأحاديث الضعيفة » ( ص ٣٣/ ج١ )

(٣) انظر هذه مفاهيمنا ( ص ٢٢٥ )

والحكم بهما على كل قوم ، وعدم تقديم أى قول يخالفهما ، مهما كان قائل هذا القول وبذلك نحافظ على وحدة الأمة وعدم السماح بتمزيقها فى مناهج عقدية أو مذاهب فقهية أو عصبيات مذهبية أو جماعات حزبية ، حتى نكون فعلاً ممن قال الله فيهم : ﴿ أذلّةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين ﴾ [ سورة المائدة : ٥٤ ].

ومتمثلين قول النبى ( ﷺ ) : « لاتحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولاتباغضوا ، ولاتدابروا ، ولايبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذ له ولايحقره ، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ».

وقوله ( ﷺ ) : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ».

وقوله ( ﷺ ) : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه مسلم فى صحيحه ، وأختم حديثى بما كان يفتتح به النبى (ﷺ) صلاته إذا قام من الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم ». رواه البخارى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرس

الاعتصام بالكتاب والسنة

وأثره فى وحدة الآمة



تم الفهرس بحمد الله تعالى